ادت بالكردينال تيومان ومـانينج وكثيرين غيرهم من نوابغ العلم والـدين الى الرجوع الى دين انكلترة الاصيل الى الوحدة الكاثوليكية الرومانية. على ان العدد الوافر من تبعة هذه الكنيسة لا يزالون يلتمسون بالبحث سبيلاً الى الهـداية. وهم واصحابهم من ذوي النزعة الانكلو كاثوليكية يجاهدون لتغيير كتاب الصلوات كي يجعلوه دستوراً يقارب تعليم الكنائسة على ان يجدوا وايانا مستوى للمناظرة واحداً فنقف واياهم عليهِ ونتباحث عن صدق وحسن نية ومحبة فيما يفرقهم عنا ولعلهُ عرضيٌّ سطحيٌّ ليس الّا فنتصافح مصافحة اللقـاء بعد طول الفراق ويعود اخواننـا الانكليكان الى حظيرة الواحدة. حقق الله الآمال

شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء القرون المتأخرة مباشرة بالقرن الرابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

١٥ الشاعر ابرهيم الحكيم

هو احد ابناء الشهباء الذين ساعدوا في وطنهم على تلك النهضة الادبيعة التي لاح فجرُها بين النصارى في القرن الثامن عشر

﴿لمحة من ترجمتهِ﴾ لسنا نعرف سنة مولد الشاعر ابرهيم الحكيم والمرجّح انهُ ولد في اوائل القرن الثامن عشر او اواخر السابع عشر. أمّا اخبارهُ فلم يدوّنها احد من كتبة عصرهِ وانّما اطّلعنا على بعض اطوارها بما ورد في ديوانهِ الذي استخرجهُ من زوايا النسيان جناب صديقنا الاستاذ عيسى افندي اسكندر المعلوف بعد اطلاعهِ على ما نشرناهُ في المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٥٥٩; ٥٨١; ٧٠٨) من قلمهِ بخصوص رحلتهِ

من حلب الى مصر وقد جاء فيها عدّة قصائد وجدها في ذاك الديوان المخروم في اوّلهِ والضائع اسم مؤلفهِ

فيؤخذ من هذه الآثار انَّ ابرهيم الحكيم ولد في حلب من أُسرة كريمة من طائفة الروم الكاثوليك. ونشأ هناك وتخرَّج على علمائها النصارى وقد ذكر منهم منصوراً الحكيم من اقربائهِ الذي ورد ذكرهُ في اخبار طائفتهِ كاحد الداقعين من حقوقها في وجه الدولة التركية في حلب والاستانة ثمَّ دان بالاسلام طمعاً بالشرف. ومنهم العالمان الشهيران الشمّاس عبدالله زاخر والخوري نقولا الصائغ وقد همّ بمدحها شاكراً ثمَّ رثاهما بعد وفاتها

وكانت اقامة ابرهيم الحكيم في وطنهِ يتعاطى فيها صناعة الطبّ على مثال اجدادهِ الذين أُطلق عليهم اسم بيت الحكيم فورثهُ بعدهم. وجاء لهُ في ديوانهِ قصيدة يشكو فيها صناعتهُ ويصف ما ينال المرء بسببها من المصاعب افتتحها بقولهِ (من الكامل):

تباً لرزقٍ يبتغيهِ الآسي تباً لذلك من عيون الناسِ
تباً لمرءٍ عند ضرّ الناسِ يأ تي رجحهُ بالكرهِ والإخناسِ
تباً لسوء صناعةٍ محسودةٍ مضروبةٍ بالقلّ والإفلاسِ
تلقى الطبيب ولو حوى الاموال لا تبقى لديهِ لآخرِ الانفاسِ

وهي طويلة (اطلب المشرق ١٩٠٧ ص ١١١٦) وقد ختمها بقولهِ:

يبقى الطبيبُ عدوّ كل الاهل والاحبـاب بل عدوّ كلّ النـاسِ

على انَّ مهنتهُ هي التي قرَّبتهُ من رجال الدولة كعمر آغا يحيى بك ومحمّد آغا ابن رستم. وانتدبهُ عثمان باشا والي حلب ليرافقهُ الى الاناضول فوصل بعيّتهِ الى سيواس سنة ١٧٥٧ وقد ذكرها في شعرهِ

ثمَّ دهتهُ الظروف واضطرَّتهُ الاحوال الى الخروج من وطنهِ في السنة ١٧٤٠ فرحل الى آطنه ثم رجع الى الشهباء. ثمَّ خرج منها سائحاً سنة ١٧٥٠ الى اللاذقية فزار

صهيون وذكر آثارها ثمَّ رحل الى حمص واقام فيها مدَّةً (١٧٥٠ــ١٧٥٢) فعاد الى وطنهِ الى ان خرج سنة ١٧٥٧ الى سيواس بصحبة عثمان باشا

ولمَّا كرَّ راجعاً الى وطنهِ لم تطل فيهِ مدَّتهُ فانَّ البطريرك الدخيل سيلفسترس كان نال فرماناً لضبط كنائس الشام ومطاردة الكاثوليك فقدم حلب احد انصارهِ المسمَّى فيلمون فاضطرَّ مطران الروم الكاثوليك السيد مكسيموس حكيم ان يهرب من وجههِ الى لبنان . فاخذ يضطهد الكاثوليك فحبس منهم وقتل منهم واراد ان يلقي في السجن ابرهيم الحكيم لتحشهِ للدين ففرَّ من وجههِ وسافر من حلب الى لبنان ومنهُ الى مصر فقضى فيها سنتين ولا نعلم ما جرى لهُ بعد ذلك ونرجح كونهُ قضى نحبهُ في وطنهِ

ولم نطَّلع على سنة وفاة ابرهيم الحكيم . والظاهر انهُ عُمر طويلاً فقد وقفنا لهُ على ابيات كتبها سنة ١٧٨٢ لفريح جرجي بشارة صائغ ختمها بهذا التاريخ :

فأذكرُ القولَ في التاريخ «بينكمُ فاجأني الموتُ كي احظى بمولاني»

وكان ابرهيم مقترناً بالزواج فرزقهُ الله اربعة بنين إلَّا انَّهم ماتوا صغاراً وكان اكبرهم يدعى جبرائيل رثاهُ ابوهُ سنة ١٧٤٣

﴿اخلاقهُ وآدابهُ﴾ انَّ الآثار الباقية من قلم ابرهيم الحكيم صورة ناطقة عن حسن طباعهِ وآدابهِ . وفي مقدَّمة صفاتهِ تديُّنهُ وعراقتهُ في معرفة عقائد النصرانيَّة فتراهُ وهو عالمٌ يصف تعاليم الكنيسة وصفاً شائقاً ويتغنَّى بمحامد السيد المسيح وقلبهِ الاقدس ويصف حبَّهُ الالهي ثمَّ يطري صفات والدتهِ الجليلة ويلتجئ الى شفاعتها كأبرّ البنين ويتَّسع بذكر الرسل الاطهار

ومن صفاتهِ صدق معاملاتهِ مع اهل وطنهِ والاجانب من مسلمين ونصارى ونفورهُ من ذوي المراء والنفاق واهل الريبة فيصفهم في شعرهِ وصف الرجل الفاضل الذي لا تعمل بهِ ظواهر الخداع

وقد اكثر في شعرهِ ذكر الزهد والتوبة ما يدلُّ على ميل نفسهِ الى العيشة المسيحيَّة الفضلى

امّا أدبهُ فانّ آثار قلمهِ تدلّ على رقيّهِ فتجد نثرهُ ونظمهُ في طبقة راضية وإن تسامح في نظمهِ ببعض الجوازات الشعريّة كالفيهِ السيّد فرحات والخوري نقولا. وقد جاراهما في الفضل فلم يقتصر على الدينيّات والادبيّات بل تعاطى كلّ فنون الشعر وقد ذُكرت لهُ بديعيّتهُ في مديح السيد المسيح ووالدتهِ ورسلهِ وكنيسته (المشرق ١٩٠٧: ٨٣٦ــ٨٤٢) ولهُ في اوصاف البلاد والرجال ومشاهد الطبيعة اقوال تدلّ على جودة قريحتهِ وبديع تخيّلاتهِ وحسن ذوقهِ هذا فضلًا عن غزارة مادّتهِ واتساعهِ في بسط المعاني. وها نحن نذكر شذورًا من اقوالهِ فنحيل القرّاء الى ما نُشر من منتخبات قصائدهِ في المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٨٣٣; ٨٦٠; ١٠١٦; ١١١٠) وقد وقفنا على قسم من ديوانهِ الذي حصل عليهِ منثورًا جناب صديقنا الاستاذ عيسى المعلوف فنقتبس منهُ شيئاً. قال متنزّلًا في محاسنهِ تعالى جلّت قدرتهُ (من الكامل):

يا واحدًا شُرّفتَ في عليا كا ... في قدرةٍ ما حازها إلّا كا
تُفدى بروحي يا قُصارى بُغيتي ... بل مُنيتي أنعِمْ عليَّ بلذا كا
وأرِ لحاظَ الصبِّ مَنظرَكَ البهي ... واشفِ عليلًا يرتجي لُقيا كا
أمْنُنْ عليَّ بنظرةٍ مترحّماً ... قد شاقني رؤياكَ ثم علا كا
ان هبَّ ريحُ الصُّبح او ريحُ الصبا ... تتلفّتُ الابصار نحو لِقا كا
تهتزُّ اوراق الرياض بزهوها ... فهي لسانٌ يبدي عزَّ سنا كا
ان مالت الاغصانُ في روضٍ فهي ... كأناملٍ تومي وليس سوا كا
والوُرْقُ مذ تعلو الغصون فانها ... تروي بلذّةِ شَدْوها أسما كا
والسُّحب لو رَكب اليراعُ بمتنها ... تُملي بفيض الماء وجه سخا كا
والبدرُ في افقِ السماء مصرّحٌ ... لولاكَ ما عرَف البها لولا كا
فالكلّ منك وجودهم فتُثيرهم ... بسنائك السامي وانت كفا كا

أَلفاكَ بي بسوادِ قلبي جاثلًا لكنَّ عيني تشتهي رؤياكا
أَنعم عليَّ بنظرةٍ اذ انني أَيِسْتُ ان لم استشفَّ خفاكا

ومن محاسن شعرهِ قولهُ في مديح قلب يسوع الاقدس سنة ١٧٣٢ (من الكامل) :

يا أَيها القلبُ الالهيّ الاقدسُ يا منبعَ الجود الذي لا يُحبَسُ
يا منهل الفيضِ الذي بورودِهِ ماءُ الحياة لكلّ من يتقدَّسُ
يا منبر الثالوث والكنزُ الذي خيراتُهُ مَنْ أَمّها لا يَيأَسُ
يا مصدر الجود الذي عمَّ الورى خيرًا تكلُّ اللُّسْنُ عنهُ وتخرَسُ
انت الوجودُ وانتَ عين الجود بل انت الحياةُ لكلّ من يتنفَّسُ
انت الجمالُ بل الكمالُ بأسرهِ ولهذهِ الاوصافِ تعنو الانفُسُ
انت الحبيبُ وانت عينُ الحبّ م والحاوي الكمالات التي لا تُعكسُ
انت الذي اضرمتَ نار الحبّ في قلب الذين هويتَ ان يتقدَّسوا
أَضرمْ بقلبي هذه النار التي تحيا القلوب بها وتعلو الارؤسُ
ارجوك يا مولايَ قبل الموت ان تُعطي عُبَيْدكَ ما بهِ يتهجَّسُ
ان ترتضي قلبي لقلبك منحةً وذبيحةً حسناء لا تتدنَّسُ

ومن تغزُّلهِ في مديح مريم العذراء قصيدتهُ اللطيفة التي يقول فيها (من الطويل) :

لقد عُفْتُ كلَّ الحبّ من دون حبّها فكلّ ودادٍ ما عدا ودِّها دَهـا
فحتَّامَ ارجو في الأَنام مودَّةً وقد زاد وَجدي دونَ أَحبابها بِهـا

فيلوا اليها واملكوا العزّ والعزا فمن كان منسوباً الى عُزّها زهـا
فقد جُمعت فيها المحاسنُ كلُّهـا فهيهاتَ ان يحوي محاسنَهـا نُهَى
واذ لم يكن في الناس نِدٌّ لحسنها فَانَّا اباهـا البـدر او أُمَّهَا مُهَـا
لذا حارَتِ الالبابُ في حُسْن وَصْفها ولم يَقْدر انْ يُحصَى ثنا فَضْلِها لَها
اذا أَسْفَرَت اخفَى ضيا الشمس نورُها وأدهَشَ أبصار الورَى ما بِها بَها
فَيا حَبَّذا ذُلّي لدَيهـا وَحَبّـذا دِمايَ فلو شاءت لأَبذُلهـا لَهـا
هيَ العروة الوثقى وهي الملجأ الذي يقينا اذا ما الخطبُ من ضدّها دَهَا

ومن مديحه قولهُ من قصيدةٍ رائيَّة طويلة اوَّلها (من الطويل):

أَلاليتَ هذا الدهرَ يصحو من السُّكرِ ويصفو لما ابداهُ من كَدَرِ النَّدْرِ

ومن مديحهِ ايضاً القيَّتهُ التي قالها في السيد جبرائيل حوشب اسقف حلب اللاروني وخلَف السيد فرحات (من الكامل):

غنَّت حمامُ الروضة الغنّـاء برخيمِ شدوٍ ثغورهـا اللَّمْيـاء
وأمدَّها أَرَجُ النسيم بنفحـةٍ فُضَّت كختم المسك في الارجاء

ومنها:

كنزُ التُّقى جبريلُ بل مأوى النقا خيرُ الوجود وجودُ كلّ سنـاء
راعٍ امينٌ حارسٌ متيقّظٌ نَدْبٌ كريمٌ لجّة الانداء
فهو السراج العالي فينا منـارُهُ مـذ لاح أخفى ظلمة الإغواء
صرحٌ على جبـل الفضيلةِ ثابتٌ لا يختفي عن اعين النظراء

وهي طويلة تنيف على ٦٠ بيتاً ختمها بقوله:

منّي السلامُ لـك دواماً طالمـا صدحتْ حمام الروضة الغنّاء

وله في مديح بعض السادات (من الطويل) :

همامٌ كساهُ اللهُ ثوباً مُدَبَّجاً من الفَضْل والآداب والمجد والفخرِ
لهُ تشهد الراؤون في كلّ قبلةٍ وتنشدُهُ الكتّاب في البَدْو والحَضرِ
حَزُومٌ أَبَتْ إلّا امتداحاً صفاتُهُ برغمٍ من الاعداء طوعاً بلا قَسرِ
غيور على الايمان في كلّ حادثٍ نصوحٌ سديد الرأي في النَّهْي والأَمرِ
لك اللهُ من نَدْبٍ لقد قرن التُّقى مع العلم والفَضْل المنيف مع الطُّهرِ
أَتته المعالي اللاتي عزّت على الورى وحنّت اليهِ كالفَطيم الى الظِّئرِ
أَيا طالبين السَّيْر في اثرهِ اقصروا فاينَ السُّهى ياقوم من كفِّ مستقري
فتلك اختصاصاتٌ فللّه ان يشا يخصُّ بها من شاء فضلاً بلا شُكْرِ

وقال في الشوق الى بطرس احد اصدقائه وهو في الغربة (من الطويل) :

إلامَ أُداري الشوق وهو خؤونُ وأُخفي أُلتياعاً والدموعُ شؤونُ
الى الله أَشكو من أَذَى الدهر لوعةً يحنُّ لها القلبُ الخليّ ويلينُ
ووحشةَ دارٍ غاب عنها أَنيسُها فعدتُ بقلبٍ يعتريهِ انينُ
لكلّ منَ الأدواء طبٌّ لدائهِ ولكنّما داءُ الفراقِ دفينُ
ألا أيُّها الخلُّ الصدوقُ بودّهِ وان غرّبَتْهُ في البعادِ شطونُ
ابثُّك شوقاً ذاب منهُ تجلُّدي وحسبي تحولي شاهدٌ وضمينُ
كأنّ أُوَيقاتٍ تقضّت بقربكم لطائفُ طيفٍ في الصباحِ تبينُ
لقد نبّهت مني الشجونُ لواعجاً من الشوق لم تُغمض لهنّ جفونُ

ومنها:

ألا يا نسيماً علّ في ساحة النّوى ... فأحياهُ عن طلّ السّحاب هتونُ
تلطّفْ رعاكَ الله واحملْ تحيّتي ... فانّك في نَقْل السلام امينُ
الى مَرْبع التقوى الى مَنبع الجدى ... الى مَنْ فؤادي في حماهُ رهينُ
الى بطرس المفضال والمُخلص الذي ... تراهُ بصدقِ الودِّ ليس يَمينُ
هو مؤنسي بل ضوء قلبي فمن تُرى ... لذلّي على هذا المُصاب يُعينُ

وختمها بقوله:

اليك شقيقَ الروح بكراً توجّهت ... لها من معاني الوَجْد فيك فنونُ
فدُمْ يا ابنَ وُدّي في ذُرى الخير والرضا ... مع اليُمن والاقبال حيثُ تكونُ
منيعاً شديدَ البأسِ في كل حادثٍ ... لك السعدُ خِدْنٌ والفلاحُ قرينُ

ومن رثائه قولهُ في صديقهِ الشمّاس عبدالله عبده مات بغيبة بكركي يوسف (من الطويل):

لقد جار دهري وانتضى سيفَ غَدْرِهِ ... فأفنى اصطباري ثم أوهى شبيبتي
وساء بنزع القلب من مهجتي وهل ... يُرَى لي شخصٌ بعدَ فَقْدِ الاحبّةِ
بموت العزيز القَرْم ذي الهمّة التي ... علَتْ في المهمّات العظامِ بحليةِ
هو النّدْبُ عبدالله نصرةُ من أتى ... وجيماً كسيرَ القلب بادي الفجيعةِ
فيا ليت شعري هل يُرَجّى لقومهِ ... سلوٌّ على المفقودِ ام بُرْءُ عِلّةِ
سوى نجلهِ ذاكَ المفدّى لدى الورى ... هو يوسفُ المفضالُ عزُّ الايمّةِ
هو شبلُ ذاكَ القسورِ القَرْم مَنْ نشا ... بحُسن السجايا والحِمى والمزيّةِ

لئن لم يَفُزْ منـهُ بتوديعـهِ ولا ببعض كُلَيماتٍ شفاءً لِغُلَّةِ
فانَّ لسان الحال عنهُ كقائلٍ: «ألايا حبيبي دون اهلي وصحبتي
ويا يوسفُ النجلُ السعيد فان ترى جزاءً لأتعابي وتسكينِ لوعتي
فلا تُغضِيَنْ طَرف العنايةِ والعَنـا عن اخوتك اللاتي هم روحُ مهجتي»

ومن اوصافهِ الحسنة ما قالهُ في سفرهِ بحرًا في سفينة قلاعيّة قبل ان يشعر بهيجانهِ وتلاطم امواجهِ اذ كان البحر هادياً والسير مؤاتياً واديم السماء صافياً والنسيم عليلًا (من الطويل):

يقولون انَّ البحرَ ساءت مصائبُهْ وقـد كَثُرَتْ آفـاتُهُ ومعاطِبُـهْ
واني رأيتُ البرَّ اقوى شدائدًا وأعظمَ اهوالًا وتُضْني متاعِبُـهْ
حُزونٌ وأوعـارٌ نزولٌ ثم ارتقـا وشَيْل وحطٌّ ثمَّ قومٌ تُناهِبُهْ
وفي البحر راحاتٌ كأنَّ الفتى بها ينامُ على مَهْدٍ تساوَتْ مناكِبُهْ
تَسير بهِ الركبانُ من فوقِ مَتْنِهِ كأنَّ على سَطحٍ تعالت جوانِبُـهْ
تَهبُّ عليهِ الريحُ في طيب سَيْره ويا حبَّذا سَيْرًا تطيبُ مذاهِبُـهْ
ترى سُفْنَهُ من فوق صَهْوات ظهْرهِ كأنَّ قصورًا زيَّنَتْها حبائِبُهْ
وتحكي قلاعاً طائراتٍ مع الهوا يلاعِبُها ريحُ الصبـا وتُلاعِبُـهْ
تمرُّ كمرِّ الطَّير من غير عَثْوَةٍ وتجري كسهمٍ جاد بالحزم ضاربُهْ
فكم سائرٍ فيهِ ينامُ بساحلٍ ويصحو على الشَطِّ الذي هو طالِبُهْ
يبيتُ ويجري سائرًا غيرَ عالمٍ ولم يَدْرِ إلَّا طالبَتْهُ قوارِبُـهْ
وكم تاجرٍ فيهِ رأى بعد فاقةٍ جزيل الغنى لمَّا اتَتْهُ مكاسِبُـهْ

وكم سائرٍ فيهِ يلاقي مع المدى عجيبَ امورٍ حين تبدو غرائبُهْ
عَليك به يا صاحِ من دونَ خَشيةٍ ترى ما أُخيّلاهُ واهنا مشَارِبُهْ
ولا تُعطِ أُذْناً للعجيب بلَوْمهِ فجلُّ الذي لم يَدْرِ منهُ معايبُهْ

اجترنا بهذه الامثلة لتعريف ابراهيم الحكيم فانَّ في آثارهِ دليلًا على انَّهُ ساعد ابناء وطنهِ في نهضتهم الادبيَّة التي عمَّت بعدئذٍ انحاء الشام. وذلك ما يشفع ببعض الركاكة التي تُرى في قصائدهِ كما في شعر مواطنيهِ وهم يعيشون في محيط خامل جامد لا يجدون مدارس منظَّمة في وطنهم ترشدهم وترقيهم في الآداب كما انهم لم يأنسوا من الدولة التركيَّة وارباباً تنشيطاً على العمل

ولنا في رحلة ابرهيم الحكيم الى لبنان ومصر التي نشرناها في المشرق (١٠[١٩٠٧]: ٥٥٩;٥٨١;٧٠٨) شاهدٌ آخر على فضلهِ في الكتابة. ولهُ هناك نثرٌ بديع تبسَّط فيهِ واعرب عن تفنُّنهِ في الانشاء. وحسن الوصف لمواطنهِ الباطنة ولما عاينهُ في تلك السياحة من البلاد والرجال والمشاهد الطبيعيَّة الفتَّانة والحوادث الواقعة وكلّ ذلك بالسجع اللطيف. فمن قولهِ يصف نوْ البحر واهوالهُ بعد وصفهِ محاسنهُ وافضالهُ:

« واقبلت الليلة الدهماء، واذا بالجوّ قد تمكفّر وبرد، وابرق وارعد، والبحر أرغى وأزبد، وقطّى وقدّد، واضطرب وهاج، وتراحمت فيهِ الامواج، وعجّ ولكن اجَّ عجاج، وغاطلت الاعطار كالمدرار، وترويح الريح وثار من سائر الاقطار، حتى عدمنا القرار وتقاربت شُقّ الاعمار، وتميّزت الافكار، وترايدت الاحزان والاكدار، وتقطّعت الغرائم والاوتار، وعاد كلّ كالمحتار لكثرة الخوف والانذعار، فقضينا ليلةً تابنيّة، بأحزان يعقوبيّة واحتالات أيُوبيّة، الى ان طلع الصباح، واضاء بنوره ولاح، ليعرّفنا اي ارضٍ شارفنا من البطاح، فأخبرنا بما ينفي الافراح ويزيد الاتراح، حتى عُدنا كالاشباح العادمة الارواح . . . ولو لم يأنِ النوتيّ للقلاع، ويُنزل الشراع، لشردنا الى غير بقاع، وضِعنا شرّ الضياع، وبقينا على هذهِ الحال يومين وثلث ليال، مقطوعين الرجاء والآمال، لا نفرق اليمين من الشمال، من شدّة الاهوال . . . »

ولهُ هناك وصف جميل لبيروت ومناظرها ومديح اهلها فيوقفنا على احوال عاصمة لبنان في اواسط القرن الثامن عشر في عهد الشهابيّين اذ كان البيروتيّون راتعين في بحبوحة الهناء قبل الجزّار وحكمهِ المشئوم

(لهُ بقيَّة)